

حرية أحرار... وحرية عبيد

[إلى الإنسان الحر عباس محمود العقاد]

للأستاذ نظمي لوقا جرجس

هل رأيت حماراً سقى يوماً إلى غير طعام أو شراب أو ضراب ؟
لا أظن !
فالخير هذا « تسوقه » طبيعته وضرورات حياته ! وهو
لا حياة له وراء هذه الضرورات ، ولا مذهب له غير أن تقضى
من أقرب سبيل وعلى أيسر وجه
هكذا جميع الحمار من جميع الأجناس ... ذوات الأربع
منها وغير الأربع على السواء

بعضه الجوع ، أو ينخسه في الحين بعد الحين ... ولكنه
مركوب للجوع في جميع الأحيان ؛ فهو حين ينقصه الطعام
مشغول بالبحث عنه ، وهو مشغول وقت حضوره بالإقبال عليه
بالقلب والسمع والبصر . ولا شغل به هذا ولا انشغال ، إلا أن
يكون انتظار فراغ جديد يملؤه في غير فتور ولا ملال . فهو جائع
حين تخلو معدته من الطعام فتطالبه به ، وهو جائع كذلك
والطعام ملء معدته وبين يديه . إنه جائع على الدوام ، ولا دنب له
في قلة الخلاء أو ضيق الأمعاء ! هذا مخلوق ، الجوع محور حياته
وفلكها الذي فيه تدور !

وغير جائع — وإن جاع حياته كلها ! — من تتلوى
أحشاؤه ، لأنها لم تحظ منذ أيام بما يقيم الأود ، لأنه إذا حضر
الطعام وسكنت المعدة كانت له في الحياة أشواط ليست كلها
قضاء ضرورات ولبانات ، وإن كانت كلها إرضاء نفس تطلب
الكمال في تحقيق ذاتها ، باعتبارها معنى قائماً بذاته في الحياة ،
ونعمة مستقلة في الوجود

فالنفس الحية بمعنى الكلمة هي التي لها معنى خاص
لوجودها . وهي التي تحس في أعماقها دوافع ذاتية مستقلة عن
دوافع الحياة الخارجية وموانعها

الحجر بغير « حركة » ذاتية ... لأنه لا يتحرك بذاته وإنما
بمحركه خير

والحيوان « حركة » ذاتية ... لأنه يتحرك بذاته وليس
بحاجة إلى غيره كي يتحرك

والحمار بغير « دوافع » ذاتية ... لأنه لا يريد وإنما تريد له
خلقته الشائعة بينه وبين أفراد نوعه

والشخص ذو دوافع ذاتية ، لأنه يريد بوجه خاص بخلاف
الطبيعة الشائعة بين جميع الأفراد

ودوافع الحياة الشائعة أن تطلب منك الفوت واللذة وما في
حكمها مما يطلب من جميع النظراء في النوع . وهذه هي كل
الدوافع التي تحرك الحمار ، فإذا فرغت أو كفيت لم يخرج مع هذا
عن تكرارها والانحصار فيها ، لأنها هي وحدها الموجودة
بالنسبة إليه

فالخمار ليس بذى وجود شخصي أو « عالم نفسي » مستقل
بدوافعه الذاتية بعيد عن ضرورات الحياة الشائعة في النوع
ولكنه — وكل حيوان بغير تخصيص — مجرد مدفوع
بدفعات الحياة ودوافعها . وليس بذى دفعة في الحياة إلى جانب
ذلك الاندفاع . فهو نسخة شائعة أو رقم في نوع ...
أما النفس التي لها وجودها الخاص ، فهي النفس التي لها
مطالبها وغاياتها التي تتميز بها عن بقية أفراد جنسها الذين
يطابقونها في تلقى دفعات الحياة الشائعة ، ولكنهم لا يطابقونها
في دفعات حياتها الخاصة ... التي هي عالمها النفسي الخالص لها
بغير شريك ...

تلك النفس ليست نفس جائع أو معدة مبطان ، لأن الجوع
ليس كل ما لديها من علامات الحياة ... ويستوي بعد هذا أن
يجهل الجوع صاحب تلك النفس ، وإن يعوزه الطعام طيلة أيامه .
والحمار بعد جائع أو صاحب جوع ، ولو لم يغب عن فمه اللذود
طرفة عين !

ولكن هذا وذاك قد يتشابهان في السمات أو في الالام ،
وقد نضمهما — بغير تفريق — رتبة واحدة في مملكة الحيوان !

أفترى حياة المعدة وحياة النفس بعد هذا سواء ؟
أفترى الاسم الواحد يحمل معنى واحداً عند هذه وتلك ؟
أفترى الحرية واحدة بعد هذا ، لا في مسكنين متقابلين ،

دون كمال وجودها ، سواء أ كان ذلك من صنع المخلوقات أو كان من طبيعة الخلقة الشائمة .

فهو يرفض كل إرادة على الإطلاق ، لأن له إرادته الخاصة التي يسمي لتحقيقها بغير قيد

وآية الحرية عند العبد ألا يرغم على ما لا تريده له طبيعة خلقتها الشائمة بين أفراد نوعه . .

إنه بغير إرادة خاصة — إذ هو بغير عالم نفسى — فهو لهذا لا يفهم أن تكون لأحد إرادة ، وبالتالي أن تسيطر عليه إرادة أحد ...

ولكنه يحس إرادة الحياة الشائمة وهو كله لها ... فيكره لهذا أن يشارك تلك الإرادة صريدا

الحر صاحب نفسه ، والعبد ملك خلقة

وكل يذود بعد هذا عن ملكه : فالنفس تأبى الشريك في إرادتها وعالمها ... والخلقة الشائمة تأبى الشريك في مملوكها المسخر ... وهو يكره أن يتقاسمه سيدان ، فيكافح السخيل ليخلص للأصيل ...

والكفاح هنا وهناك يقال إنه في سبيل الحرية !

فمن ينكر كل إرادة ، لأن عالمه لا يتسع لغير حياته الخاصة وإرادتها ، فهو طالب حرية

ومن ينكر كل إرادة — لا لأنه صاحب إرادة خاصة تريد أن تأخذ مداها من السلطان ، بل لأنه بغير إرادة على الإطلاق غفل في الحياة مسخر لها ، لأن إرادتها وحدها كافية لديه ومقولة — فهو كذلك طالب حرية ...

أهذا كلام أيها الناس ؟ بلى محض كلام ! فكل حرية بحرية أحرار

وليس المول على طلب الحرية ، ولكن المول على الحرية نفسها وكيف تكون ...

ولنا إلى مقوماتها رجعة بعد هذا أو رجعات

تلقى لمرقا جريسي

(أستوان)

بل عند أصحاب الفريق الواحد ، لأن الفارق فارق الطبائع لا فارق الأوضاع ؟

إن اللقمة الواحدة يأكلها اثنان على مائدة واحدة ، ولكنها عند هذا غيرها عند صاحبه ...

فهي في هذا الجانب من المائدة أصل المسمى وغاية الطالب . وهي في الجانب الآخر منها عارض يجب رفعه من الطريق التي ليس هو من غايتها في كثير ولا قليل ...

وحساب اللقمة بعد حساب كل شيء يشترك في مظهره اثنان في هذه الحياة . لأن الحياة نفسها بمنهاها الأصيل مختلفة كل الاختلاف خلف تشابه المظاهر والسمات

فهل الحرية بعد هذا يمكن أن تكون واحدة خلف وحدة اللفظ على لسان هذا وذاك ؟

كلًا

فكما أن هناك جوعة عارض وجوعة مبطان ، فكذلك هناك حرية أحرار وحرية عبيد !

أما الأحرار ، فالحرية لديهم هي عين حياتهم النفسية : تقيض أنفسهم بالدوافع الذاتية ، فإذا بالحياة من خارج تنازعها الليدان ، ولا تتركها طليقة تأخذ مداها كما تريد . فتجس النفس — لأنها حرة أصلاً وبطبعها وحكم وجودها الشخصي — أنه محال بينها وبين الاستمتاع بحريتها . فتطلب لذلك الحرية كمال موجود طبيعي ، لا قضاء مطلب مطلوب من الخارج طلب فرض واضطرار !

أما العبيد فالحرية عندهم أن يطلبوا الطعام — حاشا ! بل أن تطلبهم معداتهم بالطعام — فلا يحال بينهم وبين الطعام . وهم — إلى هذا — تطلبهم غريزة (هي معدة من نوع آخر لا أكثر ولا أقل) أن يفتلوا من القيد أثقال البهيم بأنف العقال إذا نسي الشبع وأحس البطر . أو حين يعض الجوع فيدفعه إلى السمي وراء القوت

آية الحرية عند الحر ألا يرغم على ما لا يريد ، وأن تترك إرادة حياته الفردية أو النفسية بغير قيد مداها . وبحول